

كيف تولد القصيدة ؟

لا يمكن لأى ناقد فى العالم أن يجيبك عن هذا السؤال . فقط الشعراء أنفسهم هم الذين يمكنهم أن يقدموا بعض المعلومات فى هذا الصدد . وذلك لسبب بسيط ، هو أن الذى يعانى و يتألم و يحترق هو الشاعر . والقصيدة فى وجدانه تشبه الجنين فى بطن أمه : تظل تنمو وتتحرك ، وقد تمرض وتموت ، كما أنها قد تخرج ذاقصة التكوين ، ولكن القصيدة المكتملة هى التى تظل تنبض بقوتها الذاتية ، وتساعد المظروف المحيطة بها على الصمود والمقاومة ، حتى يحين الوقت المناسب .. فتخرج كأننا حيا له شخصيته الخاصة ، وملامحه المحددة .

ويحدثنا الشاعر الأسباني لوركا أن علاقة الشاعر مع القصيدة تشبه علاقة الصياد المحترف مع الفريسة ، الذى ينتظر ظلام الليل ليخرج إلى الغابة مختبئا بين أدغالها ، مخفيا قوسه وسهامه بين أعشابها ، منتظرا بكل حواسه مرور ظيى .. وأحيانا قد يظهر الظيى ، لكن فى أحيانا أخرى كثيرة قد تنقض الليالى العديدة بدون صيد .. وفى كل الأحوال ، لنا أن نتصور عذابات ذلك الصياد وهو فى مكمنه ، يحرق فى الظلام ، ويتنفس بحدري !

أما الشاعر الفرنسي جاك بريفيير فيصور ميلاد القصيدة على النحو التالى : الشاعر مثل الرسام ، يحاول أن يرسم صورة لطائر فى قفص ، وبعد أن يرسمه ، يذهب باللوحه إلى الحديقة ، ويسندوها على جذع شجرة ، وينتظر : فإذا غنى الطائر أدرك أن عمله الفنى أكتمل ، عندئذ يقوم بإزالة أسلاك القفص من حول الطائر ، ثم يوقع باسمه على جانب اللوحه . أما إذا لم يغن الطائر ، فعليه أن يعلم أن المحاولة قد فشلت ، وبإمكانه أن يبدأ من جديد . (انظر ترجمتى لقصيدته فى هذا الموقع)

وهناك من الشعراء من كان يملكه عند الانشغال بالقصيدة حال عنيف كحال الصوفية ، ينتزعه من بين أهله وأصدقائه ، ويلقى به فى مكان بعيد كالغائب أو المتغيب .. هكذا وصف المقربون من أمير الشعراء أحمد شوقى ما كان يمر به . وقريبا من ذلك ، ما كان يحدث للشاعر البائس عبد الحميد الديب ، الذى كان يختبئ أحيانا على الرصيف خلف عربة كارو لكتيب قصيدة .. أما محمود حسن اسماعيل فكان يتعامل مع القصيدة على أنها هاتف من الملائكة ، وأحيانا من الجن ، ولذلك كان يقف فى العراء متعرضا للرياح والمطر ، لكى يصغى لذلك الصوت القادم من أعماق الغيب ..

وقديما ذهب الشعراء العرب إلى أن القصائد ليست سوى هواتف من الجن ، وكان "وادي عبقر" هو المكان الذى يجتمع فيه الجن الذين يلهمون أولئك الشعراء . هكذا تخيلوا !

ان مولد القصيدة فى اعماق المشاعر تسبقه بالضرورة فترة اعداد ، وهى اشبه ماتكون بفترة الحمل ، وتظل الظروف والاحداث والمضايقات والاحلام والامال تتفاعل فى داخل المشاعر حتى تكون لديه حالة نفسية وعقلية ووجدانية يرغب بشدة فى التعبير عنها او فى التخلص منها وعندما ياتى الموعد المحدد يجد نفسه مدفوعا لكتابة المسطور الاولى منها والتي تتوالى بعدها بقية المسطور.

وعلى الرغم من المعاناة الهائلة التى يمر بها كل الشعراء حين كتابة القصيدة فإنهم جميعا وبدون استثناء يشعرون بالراحة الكبرى ، والسعادة التى لا مثيل لها حين ينتهون من كتابة القصيدة ، ويجدونها أمامهم كائنات حيا ، يتمتع بشخصيته المستقلة ، وباسمه المتميز الذى يمنحه الشاعر له .

لكن الشعراء بعد ذلك ينقسمون فريقين : أحدهما يسرع بتقديم وليده إلى الناس ، مدفوعا بالفرحة ، غافلا عما قد يبدو عليه من بعض النقص أو القصور .. وفريق ثان لا يخرج قصيدته للناس إلما بعد أن ينقيها من كل المشوائب ، محاولا تجويدها وتحسينها حتى لا يصبح فيها مأخذ لقارئ ، أو مطعن لناقد .

ويبقى فى النهاية أن القصيدة عصاراة تجربة من الألم والسهر والانتظار ، وأنها مثل الشمعة التى تضئ لنا من طرف الشمعة ، بينما يتلأشى باقياها دون أن نعيه أى اهتمام .

